وكان شقيقه. وامتنع جماعة من الأمراء من مبايعته ثم وافقوا وسلطنوه. فاتفق أنه لما ركب من باب القصر لعب به الفرس فنزل عنه ومشى خطوات حتى دخل الإيوان فتطير الناس من ذلك، وقالوا لا يقيم إلّا قليلاً، فكان الأمر كذلك. واستعفى النائب من النيابة لما يعرف من طيش شعبان. وباشر السلطنة بمهابة فخافوه. ثم أقبل على اللهو والنساء، وصار يبالغ في تحصيل الأموال وإنفاقها عليهن، واشتغل باللعب بالحمام. فقام عليه الأمراء واحتجوا بأنّ والده الناصر قال: من تسلطن من أولاده ولم يسلك الطريق المرضية فَجُرُّوا برجله وملّكوا غيره، فخلعوه بعد سنة وأشهر، وقرّروا أخاه المُظفّر حَاجِي المتقدم، وذلك في أول يوم من جمادى الآخرة سنة ٧٤٧ سبعٍ وأربعين وسبعمائة، وأُعدم بعد ذلك.

## (١٩٩)

## (شَيْخ المَحْمُودي ثم الظَّاهريّ الجَرْكَسي)[1]

ولد تقريباً سنة ٧٧٠ سبعين وسبعمائة فَعُرِضَ على الظاهر بَرْقُوق، وكان جميل الصورة فرام شراءه من جالبه، فاشتط في الثمن، وكان ذلك قبل أن يلي بَرْقُوق السلطنة. ثم مات مالكه فاشتراه الخواجه مَحْمُود بثمن يسيرٍ، فنسب إليه وقدّمه لبرقوق، وهو يومئذٍ أتابك العسكر، فأعجبه واعتقه فنشأ ذكياً، فتعلم الفروسية من اللعب بالرمح والرمي بالنشاب والضرب بالسيف، والصراع وسباق الخيل وغير ذلك. ومهر في جميع ذلك مع جمال الصورة، وكمال القامة وحسن العشرة. وما زال يترقَّى حتى صار أمير عشرة وتأمَّر على الحاج سنة (٨٠١) بعد موت بَرْقُوق، وناب في طرابلس. ولما حاصر تَيْمُور حلب خرج مع العسكر فأُسر، ثم خلص منه بحيلة عجيبة وهي أنه ألقى نفسه بين الدواب فستره اللّه ومشى إلى قرية من أعمال صفد، ودخل القاهرة وأُعيدكما كان لنيابة طرابلس. ثم ولي نيابة الشام وجرت له خطوبٌ وحروبٌ، ثم تغلّب على السلطنة وتمّ له ذلك واستمر سلطاناً خمس سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام. وكان شهماً شجاعاً عالي الهمة كثير الرجوع إلى الحقّ محباً للعلماء مكرماً لهم يميل إلى العدل، ويحسن إلى أصحابه، ويصفح عن جرائمهم، يحب الهزل والمجون، ومحاسنه جمة. وحدّث بصحيح البخاري عن السراج البلقيني، وفتح حصوناً، ثم جهّز ولده إبراهيم المتقدم ذكره فظفر بابن قُرْمَان، وأحضره أسيراً. ولما أصابته عين الكمال مات ولده إبراهيم بالسبب الذي قدمنا ذكره، ثم (مات) هو بعده

(١) ترجمته في: بدائع الزهور: ٢/ ٣؛ شذرات الذهب: ٧/ ١٦٤، الضوء اللامع: ٣/ ٣٠٨؛ الأعلام: ٣/ ١٨٢.

بقليل وذلك في أول المحرم سنة ٨٢٤ أربع وعشرين وثمانمائة، قال العيني: لما مات كان في الخزانة ألف ألف دينار وخمسمائةً ألف دينار من الذهب، وجمع ابن ناهض سيرته في مجلد حافل قرظه له كل عالم وأديبٍ. وكان يجلّ الشرع، ولا ينكر على من مضى من بين يديه طالباً للشرع، بل يعجبه ذلك، وينكر على أمرائه معارضة القضاة في أحكامهم، غير مائل إلى شيء من البدع. له قيام في الليل، وكان يعاب بالشحّ والحسد وكثرة المظالم التي أحدثها. واتفق في موته موعظة فيها أعظم عبرة، وهي أنه لما غُسِل لم توجد منشفة ينشف بها فنشف بمنديل بعض من حضر غسله، ولم يوجد له مئزر يستر عورته حتى أُخذ له مئزر صوف من فوق رأس بعض جواريه، ولم يوجد له طاسة يُصبّ عليه بها الماء مع كثرة ما خلفه من أنواع المال. وله مآثر كالجامع الذي بباب زويلة، قيل: إنه لم يعمر مثله في الإسلام بعد الجامع الأموي، وله مدارس وسبل ومكاتب وجسور.